من تراب الطريق! (٢٧٩)

تغير المجتمعات (*) بين العاديين و الساخطين !

أغلبية الناس فى أى مجتمع، هم المنصرفون بهموم العيش ومطالبه إلى شئونهم الخاصة العادية التى توفر مطالبهم وأسرهم ومن يعولون .. تجد هؤلاء هم الأغلبية فى أى مجتمع أيا كان نصيبه من الحضارة .. وهؤلاء يكرهون عادة ما يعكر مسيرة حياتهم، ولا يرحبون بالقلاقل والاضطرابات وكل ما يفقدهم الأمن أو يعطل أعمالهم التى منها يتعيشون .. ومثل هؤلاء هم على ما درجوا عليه، لا ينتظر منهم تغيير .. مهما بدلوا أو غيروا فى ظروف حياتهم الخاصة ومساعيهم إلى أرزاقهم !

وغالبا ما يتعرض هؤلاء للإيذاء والعدوان ممن لا يطيقون رتابة الحياة المعتادة ..بسبب سرعة الملل أو الميل الشديد إلى الكسل والتشطر، أو إلى المغامرة والمضاربة والتسلط، أو بسبب الطبيعة أو الاعتياد الذى يفقد الآدمى قدرته على ضبط النفس واحترام الأصول، وهؤلاء وأولاء دائما أقلية فى مجتمعهم، ولا يتغير المجتمع بوجودهم تغييرا يذكر .

وإذ يأتى التغيير فى المجتمع من الساخطين عليه إذا كثروا وزادوا عن الحد المعتاد .. فهم فى سخطهم الذين ينشدون التغيير وينتظرونه ويستعجلون حدوثه ويتصيدون مقدماته وإرهاصاته، وقد ينشغلون فى البحث فى اقتراحات التغيير وكيفيته ونطاقه والترويج له والتبشير به .. يقبلون على ذلك لبواعث وأغراض دائما ما تكون مختلفة مختلطة قابلة

(*) المال ٢٠٠٩/٦/١٧

للتطوير والتعديل فى البدايات، ولكنها فى النهايات تنشد الوصول إلى السلطة والزيادة فيها إذا ما أمسكت بأطرافها !

وكلما زادت السلطة مالت إلى الانفراد وهانت فى عينها أقدار الآخرين، واستهانت بالتالى بآرائهم وإرادتهم، فى الوقت الذى تستطيب ويحسن عندها المتزلفون والموافقون والمسايرون .. وكثيرا ما يتنامى مع ذلك سخط مكتوم يسرى فى الخفاء، ولا تهمل السلطة قياس نبضه وحركته ومحاولة تفريغه أو محاصرته أو إخماده بالمسكنات تارة، أو بالدهاء تارة أخرى، وبالبطش إذا لزم الأمر !

لذلك فأمثال هذه السلطات تصطنع الأعوان والأنصار اصطناعا يطرد بقدر معدلات الضيق أو السخط .. وتدخل السلطة وأدواتها الرقابية والرصدية فى تناسب طردى يزداد إيقاعه كلما ابتعدت ممارسة السلطة عن استبصار الواقع وقياس كنهه قياساً حقيقيا .. فتستعير - بمنطق النعامة - رؤية المتزلفين المزخرفين المزينين، وترتاح إليها تجنبا لإزعاج الخاطر الذى لا يريد أن ينشغل بما يثيره أو يقلقه، متصورة أو واهمة أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان !

ويبدو أن هذا الداء مزمن عصىّ العلاج .. فالسلطة التى تشكل البناء النفسى لصاحبها، وتتغلغل فى حناياه، ترفعه فى نظر نفسه إلى نوع من التألّه .. ولا تزوده حينذاك بأكثر من طاقات آدميته .. وتألّه صاحب السلطة يحول تعاون الآدميين إلى طاعة وولاء وامتثال .. فمثل هذا التألّه ينقل صاحبه إلى الأعالى فى خياله وخيال الناس، فلا تكاد أقدامه تمس الأرض التى يكافح ويكدح عليها البشر، ولا يكاد اهتمامه يصل إلى هؤلاء " الموالى " إلاّ معجونا مجدولا مضفرا بحرصه على بقاء سلطته وشعبيته بينهم !

ويبدو أن السلطة لازمة من لوازم المجتمعات، لا غنى عنها فى كل مجتمع بشرى .. وهى فى كل صورها المتحضرة والبدائية نوع من

الألوهية بطول تعاطيها وإدمانها .. وكذلك فإن السخط عليها ملازم لوجودها .. فهى لا تبرأ أبداً من المآخذ والمعايب والتثريبات .. والانتباه إلى هذه المآخذ يحاصرها ويوفر علاجها أولا بأول، ولكن لو غفلت عنها عيون وبصيرة السلطة تنامت وأرهصت، وجعلت تتصاعد وتتجمع حتى تنتهز أى ظروف سيئة للخروج من الكمون إلى الانفجار فتتعرض المجتمعات لأخطار القلاقل أو الثورات أو الانقلابات، لا ينجى المجتمعات منها إلا مجيء الانفراج والرواج !

وقد لا تنجح محاولة التغيير، فتفتك السلطة بها وبمن حاولوها وبمن ساندوهم .. بل ولا يؤدى نجاحها - إن نجحت - إلى إصلاح ما روجت له المحاولة أو نشدته من تغيير، وقد تؤدى بجهالة أصحابها وتمنية أنفسهم بالأمانى غير المبحوثة - إلى المزيد من الضيق والكساد .. فالرخاء لايجيء أبدا مع الاضطرابات والقلاقل، ولا يجيء - إن جاء - إلاّ بعد استقرار الأحوال واستتباب الأمان وهدوء النفوس واتخاذ الوسائل واتحاد الأغراض وملاك الأمور إلى سلطة بصيرة خبيرة مطمئنة ساعية إلى تحقيق مقاصدها فى أمان وسلام وارتقاء مجتمعاتها !